

النموذج العربي في كتاب التراجم

سميل عثمان

أمل أن يتضح هذا النموذج ويتبلور مفهومه من خلال دراسة مثال عليه من تراثنا وهو أسلوب ابن أبي أصيبعة في كتابه العلمي المسمى (عيون الأنباء في طبقات الأطباء) وابن أبي أصيبعة هو أحمد بن القاسم السعدي الخزرجي الدمشقي المولد . قيل انه ولد عام ٦٠٠ للهجرة وقيل بل ٥٩٦ من أسرة أطباء عرفت بالعلم والأدب ، فتزود بالثقافتين العامة والاختصاصية وغدا كحالا أي طبيب عيون . وقد سافر في منتصف عمره الى مصر وعمل فيها وعاد الى دمشق بعد سنة ، ثم دعاه أمير صرخد للإقامة بقربه فلبى وأطال المكث في البلدة التي أعجبه هواؤها الى أن توفي فيها سنة ٦٦٨ هجرية (١٢٧٠ م) . وقد أسعفته ثقافته في تصنيف كتب عديدة كان عيون الأنباء ولم يزل أشهرها . يتألف الكتاب من أبواب متعددة تترجم للأطباء في مختلف العصور والأقطار وعند الأمم المختلفة فمن أطباء اليونان الأوائل الى تلاميذهم ، ومن أطباء العراق الى أطباء الشام ومصر ، ومن أطباء بلاد العجم الى أطباء الهند ، ومن أطباء العرب أثناء ظهور الاسلام الى الأطباء النقلة الذين أطلعوا أبناء العربية على طب السابقين . . .

وبما أن كثيراً من فلاسفة الأزمنة القديمة كانوا من الأطباء أو على الأقل من الدارسين للعلوم الطبية فقد احتوى « العيون » على ترجمة العديد منهم ، وأصبح من المراجع الهامة المعينة في التعرف على الفلاسفة الاغريق والعرب وحكماء سائر الأمم . وقد أعجب المستشرق اوغست مولر بالكتاب ، فتتبع

مخطوطاته حتى حققه ودفعه الى مصطفى وهبة وكيل دار الكتب المصرية فطبعه في المطبعة الوهبية عام ١٨٨٢ م . وجاءت الطبعة في مجلدين ، وهي تدل على الجهد الذي بذله كل من أسهم فيها .

ومن أجل التعرف على المنهج التعاطفي الذي اتبعه المؤلف في ترجمته شخصياته سنقوم بتحليل ترجمته لاحدى الشخصيات الأسطورية اليونانية القديمة ولفيلسوف يوناني ولطبيب عربي مخضرم وفيلسوفين عربيين .

أما الشخصية المتولوجية اليونانية فهي شخصية اسقولا ب اله الطب حسب معتقد الاغريق الوثنيين القدماء حيث نجد الكتاب يذكر اسمه وهو اسقليبيوس ، ويذكر مختلف الروايات في اسم أبيه مع تعيين مراجعه أو كتابها على الأقل . فعن السجستاني المنطقي أنه ابن زيوس وعن جالينوس أنه قد قيل في أبيه أنه أفولن (أبولون) وأنه فلاغواس . ويفسر تسميته فأسقليبيوس معناها في اليونانية مانع اليبس أي حافظ الصحة لأن الصحة في دوام الرطوبة الحية والموت في اليبوسة ، كما يروى أن بعضهم يرى في أصل التسمية اشتقاقها من البهاء والنور . وذكر أن أفلاطون قد ذكره في كتاب النواميس والسياسة . وينقل عن أخبار الجبابرة بالسريرية سمو ذكائه وعلمه . ويأخذ عن أبقراط وعن كتاب لجالينوس عن أبقراط هو كتاب (ايمان أبقراط وعهده) كما يورد القول لجالينوس ويتبعه بتفسير حنين بن اسحق له أو تعليله وخلاصة صورة أسقولا ب في نظر ابن أبي أصيبعة أنه انسان صالح موهوب ألهمه الله الطب ورفع مكاناً علياً بعد موته وأنه تلميذ هرمس الملقب بعطارد والذي يقابل ادريس نبي الله وأنه جد أغلب الأطباء والفلاسفة اليونان . ويشير الى مسألة تأليهه اشارة سريعة واصفاً اياها بأنها احدى الخرافات . ويحاول تحليل كل ظاهرة من الظواهر المتعلقة به ، فقد عد ابن أبولون لأن الطبيب يحتاج الى شيء من العرافة ، وأما الذين عدوه ابن فلاغواس فلأن هذا الاسم مشتق من الالهيبة فهو بذلك ابن القوة الملهبة الحيوانية لأن الحياة لا تكون الا بالحرارة ، وقد اعتبرت فورونس (كورونيس) والدته لأن اسمها مشتق من الشبع واستفادة الصحة . ويتعرض لصورته مفسراً كل جانب من جوانبها ، فهو رجل ملتجج جمته ذات ذوائب ، وقد اختلف الباحثون في سبب تصويره ملتججاً ، فمنهم

من اعتقد أن هيئته كانت على هذا الشكل عندما انتهت حياته الأرضية ، ومنهم من ذهب الى أن صناعة الطب التي نسب اليها ونسبت اليه تحتاج الى الشيخوخة والعفة ، ورأى آخرون أنه صور ملتجئاً على حين صور أبوه أمرد بسبب تفوقه في صناعة الطب على أبيه ثم يفسر تصويره حاملاً عصا من شجرة نبات طبي ولماذا يرسم التنين^(١) على تلك العصا . . .

ويروي بعدئذ أنه علّم الطب ابنيه اللذين رافقا أغاممنون عند ذهابه الى فتح طرياس (طروادة) . وأخيراً نجد المؤلف ينقل عن كتاب الأمير أبي الوفاء مبشر بن فاتك في كتاب (مختار الحكم ومحاسن الكلم) باقة من حكم منسوبة الى أسقليبيوس مثل « كم دهر ذمتموه فلما صرتم الى غيره حمدتموه ، وكم من أمر أبغضت أوائله وبكى عند أواخره عليه » ومثل : « اني لأعجب ممن يحتمي من المآكل الرديئة مخافة الضرر ولا يدع الذنوب مخافة الآخرة » وقيل له : صف لنا الدنيا فقال : « أمس أجل واليوم عمل وغداً أمل » وقال : « المتعبد بغير معرفة كحمار الطاحون يدور ولا يبرح ولا يدري ما هو فاعل » الى غير ذلك من الحكم التي تجعله مألوفاً عند قارئ كتاب عيون الأنباء غير غريب في نظرهم .

وملاحظتنا الأخيرة السابقة هي التي قادتنا الى التوقف عند الظاهرة التعاطفية في منهج ابن أبي أصيبعة ، فهو عندما يرى الباحثين مختلفين حول أمر من الأمور أو يجد أن الأمر يحتمل الاجتهاد يميل الى تبني الاجتهاد الايجابي الذي يعطي لترجمته صورة مقبولة في نظر قرائه ، ويسمح بتقريب العقول بعضها الى بعض ، ويجعل نظرات الماضين معقولة في نظر اللاحقين . وقد رأينا اننا نعتقد في أسقولا ب أنه رجل صالح موهوب ملهم وليس الهاً للمطب وهو بذلك قد عاد الى أصل هذه الشخصية التي أدت المبالغة في شأنها الى تكون المعتقد الأسطوري عنها ، كما عبر عن تقدير القدماء لها بلغة التقدير التي يعرفها أبناء عصره فاستأنسوا بدلاً من أن ينفروا . وقد ذكر أثناء البحث عدداً من آلهة يونان وأبطالها مثل زوس وديونيزوس وديمتر و هيبا يستوس وهرقل واعتبرهم جميعاً - كما يرجح أن يكونوا عليه في الأصل - أناساً نابهين تمتعوا بالمواهب وقدموا العطاء .

١ - لعل المقصود بالتنين : الحية التي توافق اسقولا ب . فمن معاني التنين انه الالهي العظيمة .

وينظر صاحب العيون بعين الفهم الى الفن الاغريقي القديم فأجزاء صورة أسقولا ب المرسومة أو المنحوتة لم تأت عبثاً بل عن حكمة رمزية تناسب ما اشتهر به مؤسس الطب فكأنه يريد أن يقنع الناطقين بلغته أن أبناء الحضارات الأخرى يفكرون ويجهدون ويحاولون أن يعملوا بمقتضى الحكمة ومن المناسب للمرء أن يطلع على محاولاتهم ويتفهمها ويقدرها حق قدرها .

فاذا ما تركنا أسقليبيوس الذي يعتبر أدخل في باب الشخصيات الأسطورية منه في مجال التاريخ وانتقينا فيلسوفاً عاش تاريخياً بشكل أكيد ودقق في أمره القدماء والمحدثون وهو أرسطوطاليس بن نيقوماخوس نجد صاحب العيون يفسر الأسماء اليونانية . أرسطوطاليس هو تام الفضيلة وتفسير اسم نيقوماخوس هو قاهر الخصم وكأن هذه التفسيرات اللغوية وإحياءاتها تخدم منهجه التعاطفي . ثم يرجع نسبه الى أسقليبيوس رأس الأطباء . عن طريق أبيه الطبيب وأمه . وبعد أن يذكر مكان ولادته المعروف يروي قصة تعلمه في أكاديمية أفلاطون (أكاديمية أفلاطون) وهي أيضاً معروفة ولكن صاحب العيون ينقل عن مراجعه ما يجعل لها هالة خاصة، فقد ذكر قوم أن تسليم أرسطو الى أفلاطون لتعليمه تم بوحي من الله في هيكل بوثيون وكأنه ينبه قارئه الى ألا يأخذ الأمور بضيق الأفق بل عليه أن يوسع نظرتة فكل الهياكل يقصد بها الله وان اختلفت المظاهر والتسميات .

ويتم قصة حياته وتعليمه باللوقيون ثم تأديبه الاسكندر المقدوني ورحلاته بين أثينا وسواها الى خروجه الأخير عند شروع أحد الكهنة في تأليب الرأي العام وتحريك الدعوى ضده بتهمة الخروج على الدين ، وقد استطاع الرحيل قبل أن يناله أحد بسوء وقبل أن يضطر الى تقديم الاعتذار الذي نسبه بعضهم اليه . . . ثم يذكر تقدير أهل مدينته اسطاغيرا له في حياته وبعد موته لأنه واضع سننهم أو دستورهم وتقدير الآثينيين له ومقاومتهم من خالف ذلك ويذكر فضله ومروءته واحسانه الى الناس والتوسط لخيرهم لدى الملوك الذين قدروه حق قدره . ويذكر أن أفلاطون كان يلقبه العقل وكان لا يشرع في الدرس حتى يأتي وقد ولاه ادارة الأكاديمية أثناء سفره الثاني الى صقلية . ويروي عن المسعودي من غير تعليق أنه رأى في مكان الهيكل القديم في باليرمو بصقلية خشبة عظيمة معلقة في الهواء قيل له إن الروم - وهم اليونان

والرومان هنا - وضعت جثمان الحكيم أرسطو فيها لكي تدعو به الله لأغراضها..
ويصف أوضاعه العائلية وهيئته الجسمية وطريقته في الحياة وهي طريقة
الفيلسوف الجاد في البحث مع حب الفن... ويذكر اختلاف الباحثين في
مدة عمره وهل كان ٦٦ عاماً أو ٦٧ أو ٦٨ عاماً؟ بل ان منهم من يجعله قد
عمر طويلاً. ثم يذكر قائمة بأسماء كتبه مصنفة بحسب عدة محاور للتصنيف.

وينقل عن حنين بن اسحق قصة أرسطو الغلام اليتيم الذي كان يخدم
أفلاطون أثناء تعليمه لابن الملك الحاكم في زمانه فكانت النتيجة أن ابن الملك
استخف بما ألقى اليه الفيلسوف من الحكم فلم يستطع أن يتحدث بشيء حين
اجتمع كبار المملكة لامتحانه والابتهاج به وتقدم أرسطو فنطق بما ملأ الجمع
بالاعجاب وبما أثلج صدر أستاذه فكان محل انعام الملك. ثم يذكر طرفاً من
الحكم التي فاه بها مثل « باصابة المنطق يعظم القدر... وبالعلم تكثر
الأنصار... » الى غير ذلك من الحكم المألوفة. الا أن ما يلفت النظر في هذه
القصة أن أرسطو يسمي نفسه أرسطوطاليس بن يولبييس وليس ابن نيقوماخوس.
ثم يعود الى ذكر حكم أرسطو منقولة عن مبشر بن فاتك مثل (اعلم أنه ليس شيء
أصلح للناس من أولي الأمر اذا صلحوا ولا أفسد لهم ولأنفسهم منهم اذا
فسدوا... اذا فكرت في الدنيا لم تجد لها أهلاً لأن تكرمها بهوان الآخرة لأن الدنيا
دار بلاء ومنزل بلغة... اذا أردت الغنى فاطلبه بالقناعة ان كان لا بد لك
من اشغال نفسك بلذة فليكن بمحادثة العلماء ودرس كتب الحكمة... اعلم
أن كثرة أعوان السوء أضر عليك من فقدان أعوان الصدق... أي ملك نازع
السوقه هتك شرفه... ليكون غضبك بين المنزلتين لا شديداً قاسياً ولا فاتراً ضعيفاً
فان ذلك من أخلاق السباع وهذا من أخلاق الصبيان... انا لنحب الحق
ونحب أفلاطون فاذا افترقا فالحق أولى بالمحبة... ليس زيادة القوة بكثرة ما يرد
البدن من الغذاء بل ولكن بكثرة ما يقبل منه...) ويروى بعض ما ينسب اليه
من وصايا لتلميذه الاسكندر وبعض حكاياته معه وقصة أمره ببناء مثنى على
قبره تنقش عليه ثمانى جمل فيها جماع مصلحة الناس تتعلق بالسياسة وتبين
قيمة القوة والمال والعدل والدستور في ثبات الحكم وتأديته مهمته ، وقد رسم
صاحب العيون مخططاً للمثنى وعلى كل ضلع جملة .

ثم يعود الى التوسع في ذكر كتب أرسطو ناقلا عن بطليموس الذي يسميه بطليموس وعن أندرونيقوس، كما يذكر الكتب التي شاهدها بنفسه دون أن ترد عند هذين ومن الجملة رسالة في التوحيد على مذهب سقراط وكتاب القول على الربوبية وأعتقد أن هذا الكتاب الأخير هو الذي نسب خطأ الى أرسطو وهو في الأصل من تاسوعات أفلوطين ومصدر الخطأ هو عبد المسيح ابن عبدالله بن ناعمة المترجم^(١) . وهذه القوائم لكتب أرسطو احتوت على كتبه المعروفة في التعاليم (الرياضيات) والهيئة (الفلك) والمنطق والطبيعة وما وراء الطبيعة والنبات والحيوان والطب والنفوس والسياسة والأخلاق . . ومن أبرز مراجعه عن أرسطو كتاب (المسالك والممالك للمسعودي ، وكتاب ابن جليل عن أرسطو وكتاب (مختار الحكم ومحاسن الكلم) لمبشر بن فاتك ، وكتاب (نوادر الفلاسفة) لحنين بن اسحق ، والفهرست لابن النديم ، كما يستعين ببطليموس والفارابي والقاضي صاعد في كتابه (التعريف بطبقات الأمم) .

وقد لاحظت أن العيون لم يعرض لفلسفة أرسطو كمذهب متكامل يشمل بشكل متسلسل آراءه في العالم والمحرك الأول والصورة والمادة وأنواع النفوس ونظرياته في الفضيلة وأنواع الحكومات ومنطقه وما يحتوي عليه من نظريات في المقولات والأقيسة والبراهين ثم نظرياته الفنية وان عدد الكتب التي تحتوي على كل هذه المضمونات فكأن الكتاب مؤلف لغير المختصين موجه الى طلاب الثقافة العامة الذين يريدون أن يأخذوا فكرة عن كبار رجال الفكر الأطباء . والمؤلف يعاملهم بذلك فهو يعرض لهم رجل الفكر عرضاً حياً تختلط فيه السيرة بالفكرة بالحكاية بالقائمة المكتبية حتى يدفعهم الى متابعة الاطلاع والرغبة فيه فيجدون مراجعهم للتوسع مسرودة أمامهم . ولعله من أجل هذه الغاية لم يخض في مسائل الخلاف حول أرسطو وعقيدته وما دار من جدل حولها وبشكل خاص فيما يتعلق بقدوم العالم ومصير النفوس الفردية بعد الموت والصفات الالهية عنده . وينتهي القارئ من قراءة ترجمة أرسطو في العيون محباً له باعتباره حكيماً نبيلاً علامة داعية اعتدال وعدل وتوازن وعقيدته لا غبار عليها .

١ - عن كتاب أفلوطين عند العرب • تحقيق وتقديم عبد الرحمن بدوي • بداية كتاب : القول على الربوبية بعد التصدير العام •

فاذا ما تركنا الفيلسوف اليوناني الموسوعي وعدنا الى البلاد العربية نجد طبيباً مخضرمًا عاش بين الجاهلية والاسلام هو الحارث بن كلدة الثقفي . ويذكر صاحب العيون أنه طاف في البلاد وتعلم الطب في فارس وبنوه بتعلمه ضرب العود وعاش حتى خلافة معاوية . وقد سألته معاوية : ما الطب يا حارث ؟ فقال : الأزم يعني الجوع (وللأزم عدة معان لعل أقواها في هذا المقام هو الحمية والامتناع عما يضر) وقد أعطى الجواب نفسه حين سألته عمر بن الخطاب عن الدواء . ويروى أنه قابل كسرى أنوشروان وجرت بينهما محاوراة دافع فيها الحارث عن العرب وبيّن فضائلهم ، وأجاب عن عدد من الأسئلة الصحية تدل على استمداده طبه من التجارب الشخصية والشعبية فالداء السدوي هو ادخال الطعام على الطعام . ودم التخمّة ، ودعا الانسان الى ألا يدخل الحمام وهو شبعان . (وموضوع الحمام هنا يثير اشكالا لأن الحمام لم تكن موجودة في موطن العرب الأساسية أو تكون قسماً هاماً من حياتهم فاما أن يكون الحارث ملماً بالحمام وما يتعلق بها أثناء جولاته أو تكون القصة أو هذا الجزء من الحوار قد وضع في عصر متأخر ثم تسرب الى عيون الأنبياء) وفاضل بين الفواكه كما فاضل بين الأزهار واعتبر الهندياء والخس أفضل البقول .

وفي الحوار ما يدل على أن الطب المنسوب للحارث بن كلدة متأثر بالطب اليوناني القائم على نظرية الطبائع والأمزجة الأربعة ، يتبين ذلك من هذا القسم من الحوار (قال فعلى كم جبل وطبع هذا البدن ؟ قال على أربع طبائع ، المرة السوداء وهي باردة يابسة والمرة الصفراء وهي حارة يابسة ، والدم وهو حار رطب والبلغم وهو بارد رطب) ، ونصح بالحقنة وفاضل بين معاشرة العجوز ومعاشرة الشابة من الناحية الصحية . . . وفي البحث يستخدم المؤلف الرواية الشفهية أحياناً حين يذكر مثلاً أن شخصاً يسمى حرب بن محمد قال : قال أبي . . . وقال داود بن رشيد عن عمرو بن عوف . . . ويروي قصة الأخوين الثقفيين ومرض أحدهما واستخدام الحارث النبيذ لمعرفة دخيلته واكتشاف الهوى الذي أمرضه ، وهذا اهتمام بالآثار النفسية على صحة الجسم ومرضه . ويذكر اعجاب الرسول سلام الله عليه بطبه وثقته به حين أمر أن يكلف بمعالجة سعد بن

أبي وقاص • ومن المراجع التي يذكرها ابن جليل • وينسب الى الحارث كتاب
المحاورة في الطب بينه وبين كسرى أنوشروان •
وهكذا تتجلى طبيعة المنهج التعاطفي الذي اتبعه ابن أبي أصيبعة
فالترجمة متعاطفة مع المترجم له ، تعتز بقومه وبقوم المؤلف وهم العرب ،
ولا تأنف مع ذلك من التعلم في فارس ومن الأخذ عن الطب اليوناني القديم
ولا تتشنج تجاه الضرب بالعود والاستفادة من النبذ وتداخل قضايا القلب
الدموي بقضايا القلب العاطفي •

فاذا ما انتقلنا الى تحليل ترجمة العيون لابن سينا نجده يذكر اسمه ولقبه
وشيئاً من نسبه فهو الشيخ الرئيس أبو علي الحسين بن عبد الله بن الحسن بن علي
ابن سينا • ثم يبين منهجه في التعريف به وهو منهج قائم على الأخذ عن وصف
ابن سينا نفسه بنفسه وما وصفه به تلميذه المباشر الملازم له أبو عبيد
الجوزجاني ، ويلتزم بهذين المصدرين في أغلب البحث وهكذا يروي لنا العيون
تاريخ حياة ابن سينا وضمنها موطن أهله وأين ولد ومن هم شيوخه وتعلمه
المبكر وتنوع علومه ، والمناصب التي تقلدها والحكام الذين عمل
عندهم طبيباً ووزيراً ، والحكام الذين لم ينسجم معهم وسجنه ، وثورة العسكر
به وتنقله في البلاد ومؤلفاته ومناظراته ، وطباعه وأخلاقه مثل انكبابه على
البحث واللذة ، وقصة مرضه الأخير وكيف تأمر عليه غلماناه عند مزج الدواء
الى موته في همدان - وقد وردت في العيون همدان - سنة ٤٢٨ للهجرة وكانت
ولادته سنة ٣٧٥ في أفشنة من ضياع بخارى •

وليس من مهام بحثنا أن يعيد ذكر كل جوانب حياة ابن سينا الحافلة
فهي متوفرة في عدة مراجع قديمة وحديثة ولكن تهمننا بعض الاستخلاصات
التي تلقي أضواء مفيدة على عصر ابن سينا وشخصيته ومنهج صاحب
العيون • فمن هذه الاستخلاصات قيمة الطب في عصر ابن سينا عند كبار القوم
الذين يشعرون بأنه وسيلة لبقاء قوتهم وقدرتهم على الحكم والتغلب وتحقيق
الأهداف ومن الأدلة على ذلك أن سبب دخوله دار كتب نوح بن منصور سلطان
بخارى الساماني هو مرض هذا السلطان وعلاج ابن سينا له فأصبح من المقربين
والطب أيضاً هو سبب تقريبه من مجد الدولة ثم من شمس الدولة •

ومن ملاحظتنا اهتمام الدول يومئذ بأمر الثقافة والكتب اذ يصف ابن سينا دار كتب السامانيين في بخارى قائلاً : (٠٠ فدخلت داراً ذات بيوت كثيرة ، في كل بيت صناديق كتب منضدة بعضها على بعض . في بيت منها كتب العربية والشعر ، وفي آخر الفقه ، وكذلك في كل بيت كتب علم مفرد ، فطالعت فهرست كتب الأوائل وطلبت ما احتجت اليه منها ٠٠٠)

وفي أيامه كانت أنوار الحضارة العربية الاسلامية شديدة السطوع في بلاد فارس وما وراء النهر ، وكانت لغة الثقافة هي العربية في الغالب وان تشمر لها قوم ليسوا من أصول عربية . كان الملوك يتنافسون في ضم العلماء الى بلاطاتهم ، وحين ظفر علاء الدولة بوفود ابن سينا عليه رتب مجلساً أسبوعياً للعلم والمناظرة يجول فيه الفيلسوف ويصول . وكانت التساؤلات كثيرة حتى ان بعض كتب ابن سينا ألقت لبعض جيرانه وأصدقائه مثل أبي حسين العروضي الذي ألف له كتاب المجموع ومثل الفقيه البرقي الذي ألف له كتاباً آخر ، وكانت ترده تعليقات على مؤلفاته ومطالبات بالايضاح وتجري مباحثات بينه وبين علماء عصره مثل أبي الريحان البيروني الذي التحق بالغزنويين بينما انضم ابن سينا الى البويهيين بعد انطفاء أمر السامانيين وقد تعلم ابن سينا مبادئ حساب الهند على يد بقال . وقد يجري السؤال والجواب الطبيان على شكل حوار شعري . فقد أرسل مثلاً الوزير أبو طالب العلوي الى ابن سينا الاستشارة الطبية التالية عن بشر في جبهته .

صنيعة الشيخ مولانا وصاحبه	وغرس انعامه بل نشء نعمته
يشكو اليه ادام الله مدته	آثار بشر تبدي فوق جبهته
فامنن عليه بحسم الداء مغتنما	شكر النبي له مع شكر عترته

فأجابه الشيخ الرئيس بمقطوعة شعرية منها :

الله يشفي وينفي ما بجبهته	من الأذى ويعافيه برحمته
أما العلاج فاسهال يقدمه	ختمت آخر أبياتي بنسخته
وليرسل العلق المصاص يرشف من	دم القذال ويغني عن حمامته
واللحم يهجره الا الغفيف ولا	يدني اليه شراباً من مداثته ٠٠٠

وقد كان ابن سينا ابن عصره الشرعي فهو شخصية متعددة الجوانب ، انه طبيب فيلسوف سياسي شاعر نديم مغامر فلكي لغوي ، يؤلف الكتب بالعربية غالباً وبالفارسية قليلاً ، ممتلىء حيوية ونشاطاً لا يثنيه سفر ولا سجن عن متابعة مشروعاته فقد ألف رسالة حي بن يقظان التي كنى بها عن العقل الفعال وهو سجين في قلعة فردجان ، وفي مرة أخرى تابع التأليف وهو متوار حذر الاعتقال أو القتل تطيب له الخمر وأن عدها تداوياً لا تلهياً كما حبت اليه المرأة . يدل شعره على غنى شخصيته مع وحدتها القائمة على نور الثقافة فهو صاحب قصيدة النفس الشهيرة التي مطلعها :

هبطت اليك من المحل الأرفع ورقاء ذات تعزز وتمنع

وعدهتها في العيون عشرين بيتاً وقد وردت دون تعليق وله شعر في الزهد مثبت في العيون وفي الحنين الى الديار والشباب وفي الغزل وفي تصوير أوضاع حياته . وتظهر ثقافته الفلسفية من هذا البيت الذي قاله عندما كان سجيناً :

دخولي باليقين كما تراه وكل الشك في أمر الخروج

ويقول التشبيه في هذين البيتين على فكرة علمية في زمانه :

أوليتني نعمة مذ كنت تلحظني كافي الكفاة بعيني مجمل النظر
ان اليواقيت - فيما قيل - نشانها من حسن تأثير عين الشمس في القمر

ويظهر العلم أيضاً في هذين البيتين :

أشكو الى الله الزمان فصرفه أبلى جديد قواي وهو جديد
محن الي توجهت فكانني قد صرت مغناطيس وهي حديد

ويذكر له بعض القطعات الخمرية ومن عادة ابن أبي أصيبعة أن يثبت بحر كل قصيدة أو قطعة يذكرها فهذه من البسيط وتلك من الكامل . . . ثم يروي له أبياتاً يقول بتشكك انها اذا أنشدت أثناء تألق كوكب عطارد أفادت خيراً وعلماً .

ثم يروي قصيدة تنبؤية توقع ناظمها حوادث المستقبل حتى اجتياح التتار البلاد وردهم على يد الملك المظفر قطز وهي حوادث جرت في زمان

ابن أبي أصيبعة الذي يثبت سنواتها بالمناسبة ولكنه يشك في نسبة القصيدة الى ابن سينا وان أوردتها في ترجمته •

وعلى عادة العيون فان مذهب ابن سينا الفلسفي لا يشرح ولا يلخص بل يكتفى بما أشرنا اليه من ترجمة حياة ومؤلفات وأشعار فضلاً عن بعض الأقوال الحكمية التي تصوره معتدلاً فمن كلامه وصية أوصى بها أحد أصدقائه وهو أبو سعيد ابن أبي الخير الصوفي : « ليكن الله تعالى أول فكر له وآخره وباطن كل اعتبار وظاهره ... مسافراً يعقله في الملكوت الأعلى وما فيه من آيات ربه الكبرى ... »

ففي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

وليعلم أن أفضل الحركات الصلاة وأمثل السكنات الصيام وأنفع البر الصدقة ... والحكمة أم الفضائل أما اللذات فيستعملها على اصلاح الطبيعة وبقاء الشخص أو النوع أو السياسة، أما المشروب فان يهجر شربه لالتهاياً بل تشفياً وتداوياً ... ويعظم السنن الالهية ويواظب على التعبيدات البدنية ... »

وتظل سيرة ابن سينا شاهدة على نبوغه مثيرة للتعاطف معه وان ذكرت له بعض المقطوعات الخمرية ، فقد أورد له قوله انه يرضى بالخمير تشفياً لا تلهياً • ومع أن المؤلف جاء في عصر ما بعد الغزالي فانه لم يثر المسائل التي أثارها الغزالي حول عقيدة الفلاسفة ومنهم ابن سينا كالقول بقدوم العالم وأن البعث يكون بالأرواح دون الأجساد وأن علم الله يتناول الكليات دون الجزئيات ولا أفسر ذلك بعدم اطلاعه عليها لأن الجو العلمي كان يتداول أمثال هذه المسائل تحريرياً وشفهياً ، وابن أبي أصيبعة يعرف أن لابن رشد كتاباً في الرد على الغزالي^(١) ، والسبب الذي أرجحه لعدم الخوض في قضية صحة عقيدة ابن سينا هو ارادته الواعية التي ارتضت المنهج التعاطفي الايجابي المشجع على احترام أولئك المفكرين الذين يترجم لهم فضلاً عن أنه ينظر الى العقيدة السليمة بمنظار واسع غير ضيق •

وحين يترجم لأبي الوليد ابن رشد يذكر اسمه القاضي أبو الوليد محمد ابن أحمد بن محمد بن رشد ولد بقرطبة ونشأ بها . ثم يذكر فضله وذكاءه وعنايته بالعلوم المختلفة واشتغاله بالتأليف فيها . ويعدد بعض كتبه في الفقه والطب والفلسفة كشروحه على أرسطو وتعليقاته على الفارابي وابن سينا وكتاب تهافت التهافت ، ويبدو أنه اعتنى في الطب بشرح جالينوس كما اعتنى في الفلسفة بشرح أرسطو . ويتتبع مناصب القضاء التي وليها ثم تقرب ملك الموحدين الناصر له ثم أمعان ابنه المنصور في تقريبه حتى أن ابن رشد تشاءم من شدة التكريم . ويتعرض لنكبته من عزل ونفي واضطهاد للتلاميذ والأنصار . ويقول المؤلف أن الملك أظهر أنه فعل ذلك بهم لاشتغالهم بعلوم الأوائل . ولا يتعاطف العيون مع ناكبي ابن رشد باسم العقيدة ، والدليل على ذلك أنه لا يذكر شيئاً من التهم التي وجهت إلى معتقده ولا يدل على مطعن فيه . وكل ما يذكره هو أمور دنيوية مما يهم الملوك والحكام مثل مخاطبة ابن رشد للملك بعبارة « بتسمع يا أخي » ومثل اتهامه إياه بأنه لقبه بملك البربر ودفاع الفيلسوف بأن قصده ملك البرين والذنب ذنب النسخ . ويروى أن السبب المباشر للعفو عنه كان شهادة وفد من أعيان اشبيلية بحسن عقيدته . وينسب إليه القول الشهير « من اشتغل بعلم التشريع ازداد إيماناً بالله » .

ويستخدم المؤلف الرواية الشفهية أثناء ترجمة ابن رشد إذ يقول (حدثني القاضي مروان الباجي قال : « كان القاضي أبو الوليد ابن رشد حسن الرأي ذكياً رث البزة قوي النفس ... ») . وعلى كل حال فإن ترجمة ابن رشد لم تكن من الاتساع والتنوع اللذين عرفتهما كل من ترجمة ابن سينا وأرسطو ، ولعل السبب هو أن البعد الزمني الفاصل بين صاحب العيون وبين هذين الفيلسوفين كان ممتداً بشكل يكفي لتداول سيرتهما وانتشار الحكايات عنهما وتردد أقوالهما على أن ابن رشد توفي تقريباً عند ولادة ابن أبي أصيبعة .

ويظل المنهج التعاطفي واضحاً في الصفحات القليلة التي خص بها ابن رشد ولعل ما أوردها منذ قليل يكفي دليلاً على ذلك .

وهذا المنهج التعاطفي الذي اتبعه صاحب العيون أن دل على شيء فأنما

يدل على سعة أفق هذا الطبيب الباحث واحترامه العميق للثقافة والمساهمين في اغنائها . ومن أكبر مظاهر احترامه الثقافة هو تمجيده للفلسفة والفلاسفة على خلاف ما كان يفعله كثير من متعلمي عصره والعصور التالية له . ان عبدالرحمن بن خلدون نفسه قد هاجم الفلسفة من وجهة نظر قريبة من وجهة نظر الغزالي غالباً مع أنه يعد من مفاخر الفلسفة العربية ومع أنه استفاد كثيراً من آراء الفلاسفة السابقين عليه . وأما ابن أبي أصيبعة فإنه يقول في وصف أحد أبناء عائلة ابن خلدون السابقين على عبدالرحمن (. . .) وكان متصرفاً بعلوم الفلسفة مشهوراً بعلم الهندسة والنجوم والطب مشبهاً بالفلاسفة في اصلاح أخلاقه وتعديل سيرته وتقويم طريقته (. . .) وهذا الخلدوني الذي وصفه صاحب العيون هكذا هو أبو مسلم عمر بن أحمد ابن خلدون الحضرمي من أشرف أهل اشبيلية التي توفي فيها عام ٤٤٩ للهجرة . والنتيجة التي نتوصل اليها من خلال كل هذه الأمثلة والتعليقات أن كتاب عيون الأنباء كتاب يحقق أهم شروط الأدب العلمي وهو استثارة حماسة القارئ وتجاوبه مع المفكرين ومعاناتهم الفكرية لكي تقبل نفسه على خوض غمار العلم والبحث فاما أن يصل الى مرحلة التدقيق والتأمل العميق ، واما أن يظل على الشاطئ ينظر الى بحر الفكر باعجاب ويعتز بما يلقي اليه من لآلىء ويمد اليها يده بالصقل والصيانة ويعمل على نشر فضلها بدلا من سحقها أو نبذها . وليس ابن أبي أصيبعة وحيداً في هذا المنهج عبر تاريخنا الفكري كما نأمل أن نبين في المستقبل .

سهيل عثمان

١٩٧٩/٧/١

★ ★ ★